قضايا دينية اجتماعية سياسية معاصرة في ميزان القرآن

قراءة تحليلية في تفسير الأستاذ سيد قطب

ورقة علمية معدة لإلقائها في الندوة العالمية:

" القرآن الكريم والقضايا الاجتماعية المعاصرة"

والتي تعقده كلية الدراسات الإسلامية المعاصرة بجامعة السلطان زين العابدين بمدينة

ترنغانو – ماليزيا

1-2.12.2012

بقلم

الدكتور خيرالدين خوجة (الكوسوفي)

Email:drhafezi68@gmail.com

دكتوراه في التفسير والدراسات القرآنية

كلية الشريعة والدراسات الإسلامية – جامعة قطر

2012

تذكر دائماً أن:

" الإسلام منهج. منهج حياة. حياة بشرية واقعية بكل مقوماتها. منهج يشمل التصور الاعتقادي الذي يفسر طبيعة (الوجود)، ويحدد مكان (الإنسان) في هذا الوجود، كما يحدد غاية وجوده الإنساني.. ويشمل النظم والتنظيمات الواقعية التي تنبثق من ذلك التصور الاعتقادي وتستند إليه، وتجعل له صورة واقعية متمثلة في حياة البشر، كالنظام الأخلاقي والينبوع الذي ينبثق منه، والأسس التي يقوم عليها، والسلطة التي يستمد منها. والنظام السياسي وشكله وخصائصه. والنظام الاجتماعي وأسسه ومقوماته. والنظام الاقتصادي وفلسفته وتشكيلاته. والنظام الدولي وعلاقاته وارتباطاته..." [1]

" أما إقامة "النظام الإسلامي" ليظلل البشرية كلها ممن يعتنقون عقيدة الإسلام وممن لا يعتنقونها، فتقتضي الجهاد لإنشاء هذا النظام وصيانته، وترك الناس أحراراً في عقائدهم الخاصة في نطاقه. ولا يتم ذلك إلا بإقامة سلطان خيّر وقانون خيّر ونظام خيّر يحسب حسابه كل من يفكر في الاعتداء على حرية الدعوة وحرية الاعتقاد في الأرض!" [2].

" الأستاذ سيد قطب "

[1] **المستقبل لهذا الدين**، ص 2
[2] **خصائص التصور الإسلامي**، ص 14

قضايا دينية اجتماعية سياسية معاصرة في ميزان القرآن –قراءة تحليلية في تفسير الأستاذ سيد قطب

ملخص البحث

لقد صدق الإمام السيوطي في مقولته الشهيرة: " وإن كتابنا القرآن لهو مفجر العلوم ومنبعها، ودائرة شمسها ومطلعها، أودع فيه سبحانه وتعالى علم كل شيء...". لقد أنزل الله عز وجل القرآن الكريم ليخرج به الناس من الظلمات إلى النور، قال تعالى:﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم:1]، جعل الله عز وجل هذا القرآن معجزة حية باقية إلى يوم الدين، ومما لا شك فيه أن ألوان الإعجاز في القرآن الكريم قد تنوعت وتعددت. فهنالك الإعجاز العلمي والتشريعي والتاريخي والغيبي والنفسي والطبي والفلكي...إلخ. وبما أن القرآن معجزة ربانية لكل عصر ومصر وكتاب الإنسانية كلها وكتاب الزمن كله، فهو المنهج الإلهي المؤثر والواضح، وهو الزاد المطلوب والمفقود لكثير من الناس في هذا العصر، وهذا المنهج الإلهي من خصائصه أنه شامل، يشمل النظم الأخلاقية والاجتماعية والسياسية، وأن حاجة البشر إلى هذا المنهج كبيرة. إن مواصفات وخصائص هذا المنهج الرباني قد ذكرت في القرآن الكريم والسنة المطهرة، وكثير من المفكرين والعلماء القدامى والمعاصرين قد تناولها بالشرح والبيان والتفسير. إن أغلب النظم الاجتماعية والسياسية المعاصرة هي نظم وضعية بشرية بحتة — أو نظم فيها بقايا جاهلية – كما يرى الأستاذ سيد قطب. فالإسلام لا بد أن يكون حاكماً لا محكوماً، قائداً لا مقوداً، فهو منهج غير المنهج الوضعي البشري الذي عرفته أوربا. ففي المنهج الرباني لا عداوة بين الدين والدنيا والحضارة، ولا عداوة بين متطلبات الروح والجسد والعقل. إن النظام الإسلامي هو النظام الوحيد الذي ينقذ العالم من الإرهاق الفكري والأخلاقي والاقتصادي والسياسي، ويحقق لهم الحرية والراحة النفسية والفكرية والاجتماعية الكاملة للناس أجمعين. فلا بد من الرجوع إلى النظام الإسلامي الوحيد لصنع جيل خالص القلب، خالص العقل، خالص التصور، خالص الشعور، مرتاح البال. إن طبيعة هذا الدين يرفض اختزال المعارف في ثلاجات الأذهان الباردة، ولا بد لنا في هذا العصر أن نستفيد من طريقة الجيل الأول في قراءة القرآن الكريم للتلقي والتنفيذ والعمل والنجاح، وأن منهج التلقي للدراسة والمتاع هو الذي خرج الأجيال المعاصرة. هذه الورقة العلمية ستحاول بإذن الله أن تجيب على بعض هذه التساؤلات من خلال قراءتنا وتحليلنا لتفسير الأستاذ سيد قطب (في ظلال القرآن) إضافة إلى بعض مؤلفاته الأخرى، وبالله التوفيق والهداية والسلام عليكم ورحمة الله و بركاته.

المصطلحات الرئيسة في البحث:**منهج، التشريع، خصائص، نظم الإسلامية، جاهلية.**

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الْحَمْدُ لِلَّهِ الذي له ما في السموات رَبِّ الْعالَمِينَ بحسب كل الذوات والصفات، الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ على أصحاب الحاجات وأرباب الضرورات، مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ في إيصال الأبرار إلى الدرجات وإدخال الفجار في الدركات، إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ في القيام أداءً جملة التكليفات، اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ بحسب كل أنواع الهدايات، صِراطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ في كل الحالات والمقامات، غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ من أهل الجهالات والضلالات. والصلاة على محمد المؤيد بأفضل المعجزات والآيات، وعلى آله وصحبه وأزواجه الطاهرات، أمهات المؤمنين والمؤمنات وسلم تسليماً كثيراً. فاللهم أخرجنا من ظلمات الوهم وأكرمنا بنور الفهم، وافتح علينا بمعرفة العلم، وسهل أخلاقنا بالحلم، وأخرجنا من بحور الشكوك والشبهات إلى جنات الحقائق واليقينيات إنك يا مولانا سميع قريب مجيب الدعوات. وبعد؛

1- أهمية العمل بالقرآن الكريم اقتداء بجيل نزول القرآن (السلف الصالح)

لقد جعل الله عز وجل القرآن الكريم مصدر عزة ورفعة للمسلمين، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠]، قال بعض أهل العلم: أي فيه شرفكم وقوتكم في الدنيا. ولقد كان من نهج وهدي السلف الصالح التحاكم إليه في كل شأن من شؤون حياتهم الخاصة والعامة وفي كل أمر من أمور الدين والدنيا، قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]، وكان هذا الاحتكام إلى القرآن بكل طواعية وانقياد دون أدنى مقاومة أو ارتياب، تعبداً لله وتقرباً إليه سبحانه لرفع الدرجات، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦]. كما أن الجيل الأول الذي عاصر نزول القرآن من الصحب الكرام والتابعين لهم بإحسان توجهوا إلى القرآن بغرض التلقي والتنفيذ، بغرض التعلم والعمل فكانوا مباركين وموفقين بهذا المنهج المستقيم، وفتحوا القلوب والعقول قبل فتح القلاع والحصون. فخلف من بعدهم خلفٌ أضاعوا القرآن والعمل به توجهوا إلى القرآن بغرض القراءة المجردة والثقافة المحضة للإكثار من المعارف والمعلومات؛ فلم يكونوا مباركين ولا موفقين بهذا المنهج السقيم وكان عاقة أمرهم خسراً. ولقد آن الأوان لأمة الإسلام أن تنهض من جديد بهذا القرآن حتى يكونوا من أحباب الرحمن بحسن الفهم والعمل بالقرآن؛ اقتداء بسيد ولد عدنان نبينا محمد عليه أفضل الصلاة أتم السلام.

2- وجوب طاعة الله وطاعة رسوله و أولي الأمر

ولكي تستقيم حياة العباد ويضبط أمر البلاد؛ أوجب الله عز وجل طاعته وطاعة رسوله وأولي الأمر من المسلمين، فقال تعالى:﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [المائدة: ٩٢]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾[النساء: ٥٩].

3- دعوة القرآن عالمية، والتشريعات القرآنية لمصلحة العباد والبلاد

وكان من رحمة الله بالناس أن جعل دعوة الإسلام للناس أجمعين، قال تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾[الأعراف: ١٥٨]، كما أن القرآن الكريم نزل من لدن رب العالمين لتنظيم شؤون العباد والبلاد؛ سواء من الناحية العقيدية أو الاجتماعية أو السياسية أو الأخلاقية أو الاقتصادية، وكيف لا يكون القرآن منظماً لحياتنا العامة والخاصة، ومخرجاً الناس من كل أنواع الشبهات والظلمات إلى ساحة حقائق الأنوار واليقينيات، وقد قال عز من قائل، مزكياً كتابه الكريم ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿ رَّسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [الطلاق: ١١].

ولقد اشتملت التشريعات القرآنية على أوامر جليلة ومبادئ مقدسة لتنظيم حياتنا العقيدية والاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية والسياسية. ففي مجال العقيدة والتوحيد قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾ [فصلت: ٦]. وفيما يتعلق بالعدالة في توزيع الثروة المالية قال تعالى:﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[التوبة: ٦٠]، وقال عز من قائل: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٧٣]. وفيما يتعلق بالمحافظة على مال اليتيم وعدم أكل ماله بالباطل قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠]. وفيما يتعلق بالالتزام بالأوامر الأخلاقية والدينية العامة واجتناب النواهي والمحظورات قال تعالى: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ

شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[الأنعام: ١٥١]. وقد أوصانا الله عز وجل باتباع صراطه المستقيم المشتمل على تلك التشريعات والأوامر والنواهي والأحكام المنزلة على لسان رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وتوعدنا إذا ما ابتعدنا وأعرضنا عن منهجه القويم، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤].

4– عاقبة الإعراض عن منهج الله وحال الأمة الإسلامية في الوقت الراهن

وبسبب الإعراض عن تلك الإرشادات الربانية والهجر لتلك الأوامر الإلهية، فإن الأمة الإسلامية بعد الخلافة الراشدة إلى يومنا هذا عاشت ولا تزال تعيش بين آمال النهضة والوعود القرآنية المشرقة تارة، وبين دركات السقوط والهاوية والتخلف والرجعية تارة أخرى. فهي في الوقت الراهن تعاني محلياً وعالمياً من الضعف والتمزق الداخلي الطائفي المذهبي، والفشل الصناعي، والتخلف العلمي، والجمود الفكري، وفقدان منهج السير على الهدي الرباني رغم امتلاكها لكل المقومات الطبيعية والبشرية والاقتصادية. إنها لا تهتدي إلى القرآن منهجاً وعملاً، ولا إلى الله عز وجل إيماناً وثقة، ولا إلى سنة رسوله صلى الله عليه وسلم تمسكاً واتباعاً. لم يشهد التاريخ الإسلامي المعاصر ولا القديم مرحلة أشد ذلة وتخلفاً، وأضعف وأجبن موقفاً من هذه المرحلة التي كُتب لنا العيش فيها في هذا القرن(القرن العشرون وبدايات الحادي والعشرين). إن أكبر دليل وأعظم برهان على هذه الحقيقة المؤلمة والمرة؛ الحروب التي حدثت في العراق وأفغانستان وبلاد البلقان (البوسنة والهرسك وكوسوفا ومقدونيا) وبلاد القوقاز (الشيشان)، والحرب الجارية الآن في سوريا وأنا أسطر هذه الأسطر. يا لها من عار وخيبة أمل! عشرون شهراً ؛ المجازر والإبادة الجماعية وحمامات الدماء لا تتوقف! القصف والتدمير مستمر! القتل والتشريد على قدم وساق! صرخات الثكالى والأيتام والأرامل والأطفال والشيوخ العزل وصلت عنان السماء؛ وامعتصماه! و واعُمراه! أسمعت لو أنها نادت الأحياء! ولكن لا حياة لمن تنادي! هل من مجيب!؟ هل من معين!؟ هل من نخوة معتصم معاصر! هل من صلاح الدين! هل من خليفة أو رئيس أو ملك أو أمير مسلم يستجيب لصرخات المضطرين؟

قادة المسلمين أجمعين في القارة الأرضية كلها؛ غير قادرين على التدخل العسكري لوقف بطش الشبّيحة الأسدية والمرتزقة النصيرية من قوات النظام السوري المجرم القاتل الفتاك!! حسبي الله عليهم أجمعين

ولا حول ولا قوة إلا بالله! فإلى متى هذا الذل والهوان؟! إلى متى هذا الشجب الشفهي المحلي والدولي!؟ علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى. إنهم يحتكمون إلى القوانين البشرية العبثية، وينتظرون قرارات دول مجلس الأمن الوهمية، ويستمعون إلى الإدانات المكررة من الاتحاد الأوربي والأمريكي؛ الشكلية، ويرون التأييد الروسي والصيني والإيراني اللاإنساني علناً جهاراً لهذه الحرب ولهذه الطائفة العلوية الشيوعية الاشتراكية العلمانية، المهلكة للحرث والنسل؛ والأمة الإسلامية للأسف لا تزال ترجو من الدساتير البشرية المصنوعة أن تخرجها من تيهها وتخلفها وتنتظر النصر من هؤلاء. فلا حاكمية لله، ولا اتباع لمنهج الله، ولا طاعة لرسوله الكريم! ولا رفع لراية الجهاد لحماية حقوق المسلمين وأعراضهم! إنها تحتضر وتوجه صرخات مؤلمة للخروج مما هي فيه! فلا منجى ولا ملجأ من الله إلا إليه سبحانه! متناسية أن مفاتيح النجاح والتفوق والتغيير في يدها، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٥٣].

5- أسئلة البحث

هذه الورقة العلمية ستحاول بإذن الله الإجابة على بعض القضايا والتساؤلات المذكورة آنفاً، وذلك من خلال تجربة فارس من فرسان الفكر والتفسير والدعوة الإسلامية – الأستاذ سيد قطب رحمه الله من خلال تفسيره في ظلال القرآن وبعض مؤلفاته الأخرى، عسى ولعل تكون مثل هذه الدراسات مشجعة للقادة المسلمين خاصة، والمسلمين عامة لاسترداد كرامة وعزة المسلمين المفقودة. نسأل الله تبارك وتعالى التوفيق والسداد إنه تعالى ولي ذلك والقادر عليه.

6- سبب اختيار تجربة الأستاذ سيد قطب

إن التفاسير في الدنيا بلا عددٍ؛ ولعمري لن تجد فيها مثل الظلالِ! كتب الله عز وجل لهذا التفسير القبول في قلوب الناس قبل عقولهم، ونال هذا التفسير وصاحبه حب القراء وإعجابهم محلياً ودولياً وإن لم يلتقوا بصاحبه. شهد بذلك القاصي والداني، العرب والعجم، المسلم والكافر، السياسي والعلماني، الملحد والمتدين، الخطيب والإمام، التلميذ والأستاذ، الرجل والمرأة، الشاب والفتاة، المثقف والفلاح. وما كان لهذا التفسير أن يحظى بهذا القبول لولا صدق وإخلاص صاحبه مع نفسه أولاً ثم مع الله عز وجل ثانياً، ثم إيمانه بالفكرة والقضية التي آمن بها ثالثاً. لقد جاهد وكتب لأجلها ودافع عنها، وأخيراً دفع حياته ثمناً لها. فهو حقاً مفسر قد كتب تفسيره بعدد من الأمِدّة: مِداد الحبر، والدم، ثم زرعه في تربة الإخلاص، وسقاه بماء الصدق، وتعهده بقوة الشجاعة وحصنه بسر الإيمان. نحسبه عند الله من الشهداء، ولا نزكي على الله أحداً

والله حسيبنا وحسيبه. ولكون هذا التفسير من التفاسير المعاصرة قد ناقش قضايا عقيدية واجتماعية وسياسية كثيرة متجاوزاً بذلك عصر الخلافات الفلسفية والمذهبية التقليدية الضيقة، مركزاً على رسالة القرآن العالمية والشاملة؛ فإنني على يقين بأن الفكر التفسيري لصاحبه قد بلغ أشده واستوى على سوقه، كما أن ثمارها قد أينعت وآتت أُكُلَـها بإذن ربها في كل البلاد. فهو جدير بالمطالعة والدراسة والتحليل والنقد البناء والاستكشاف. إن الآراء والاجتهادات التي ذهب إليها صاحب هذا التفسير قد نبعت من خلاله معايشته وفهمه للقرآن الكريم مباشرة لفترة طويلة من عمره. فهو عاش كمفسر لكتاب الله وباحث عن الحق فيه. فالذين ردوا عليه أو انتقدوه أو اتهموه؛ فهؤلاء جميعاًلم ينتقدوه من خلال علم التفسير المجرد؛ كفن وعلم مستقل له شروطه وآلياته وضوابطه وأصوله وقواعده ومناهجه. إن الانصاف العلمي المنهجي النزيه والموضوعي؛ يقتضي أن نرد عليه من خلال علم التفسير وقواعده وأصوله، وأن نثبت أخطاءه وخلله وانحرافه من خلال نظرنا لقواعد التفسير ومدى احترام الأستاذ سيد قطب لها والتزامه بها، والنظر في مدى توافر هذه المؤهلات العلمية والثقافية لدى هذا المفسر[3]. هذا العمل هو المطلوب منا ومن الباحثين، وللأسف لحد الآن لم أجد شيئاً من ذلك! جميع الذين ردوا عليه واتهموه؛ ناقشوه من مختلف المنطلقات الفكرية والثقافية والعقيدية التي ينتمون إليها ولم يناقشوه كمفسرين! فهذا أمر طبيعي أن يختلفوا معي ومعك ومعه! لأن الرؤى والاجتهادات لا تتساوى، فهذه التعددية من رحمة الله ومن سنة الله في الكون، ولا حرج في ذلك، والله أعلم.

هذا وقد قسمت بحثي إلى مقدمة وأربعة مباحث وخاتمة. ذكرت بالمقدمة أهمية البحث وسبب اختياري لهذا الموضوع وأسئلة البحث. وتحدثت في المبحث الأول عن حال السلف الصالح مع القرآن وتأثر الأستاذ سيد قطب بذلك. وتحدثت في المبحث الثاني عن بعض القضايا العقيدية مثل التصور الاعتقادي في الإسلام – المضمون والأبعاد، وتحدثت في المبحث الثالث عن بعض القضايا الاجتماعية مثل طبيعة المجتمع الكافر ومعنى الدخول في الإسلام حقيقة وصفات المجتمع المسلم المثالي، وتحدثت في المبحث الرابع عن بعض القضايا السياسية مثل الأنظمة البشرية واتخاذ الأرباب من الله ومعنى الحاكمية لله. ثم ذكرت الخاتمة والنتائج.

---

[3] لكاتب هذه السطور بحث محكم منشور بعنوان" **المؤهلات العلمية والثقافية التي يجب أن يتحلى بها المفسر في العصر الحديث – الأستاذ سيد قطب أنموذجاً** " من مطبوعة **(جمعية المحافظة على القرآن الكريم)** المؤتمر العالمي الثاني" **تفسير القرآن – مناهج آفاق**" بعمان – الأردن، عام 2008

المبحث الأول : حال الجيل الأول مع القرآن وتأثر الأستاذ بمنهج ذلك الجيل

المطلب الأول: حال الجيل الأول مع القرآن

يرى الأستاذ سيد قطب رحمه الله أن القرآن الكريم هو عمدتنا وحجتنا وإمامنا في أمورنا كلها؛ الدينية والدنيوية، فمن ابتغى الهدي والرشاد في غيره أضله وأذله الله. قال رحمه الله: " هذا القرآن هو كتاب هذه الدعوة. هو روحها وباعثها. وهو قوامها وكيانها. وهو حارسها وراعيها. وهو بيانها وترجمانها. وهو دستورها ومنهجها. وهو في النهاية المرجع الذي تستمد منه الدعوة – كما يستمد منه الدعاة – وسائل العمل ، ومناهج الحركة ، وزاد الطريق..." [4].

كما أنه رحمه الله يحذر الأمة الإسلامية من الوقوع في أخطاء منهجية في التعامل مع القرآن[5]. إن الذي يعصم الأمة الإسلامية من الوقوع في مثل هذه الأخطاء هو: استحضار حال الجيل الأول الذي عاصر نزول القرآن وكيفية تعامله مع هذا الكتاب، فقال رحمه الله: "...ولكن ستظل هنالك فجوة عميقة بيننا وبين القرآن ما لم نتمثل في حسنا، ونستحضر في تصورنا أن هذا القرآن خوطبت به أمة حية، ذات وجود حقيقي؛ ووجهت به أحداث واقعية في حياة هذه الأمة؛ ووجهت به حياة إنسانية حقيقية في هذه الأرض؛ وأديرت به معركة ضخمة في داخل النفس البشرية وفي رقعة من الأرض كذلك. معركة تموج بالتطورات والانفعالات والاستجابات..."[6].

وعلل رحمه الله يرى بأن الذي حال بين تقدم الأمة الإسلامية والاستفادة المباشرة من القرآن الكريم هو وجود ذلك الحاجز المعنوي بمثابة الران على القلب الذي حال بينها وبين القرآن الكريم. ويتمثل هذا الحاجز في تلاوات وتراتيل المسلمين الذين يتلون كتاب الله بألسنتهم ولا تتجاوز حناجرهم؛ فهم غير مبالين بتطبيق المعاني المستنبطة من القرآن في واقع حياتهم، فقال رحمه الله:"...وسيظل هنالك حاجز سميك بين قلوبنا وبين القرآن، طالما نحن نتلوه أو نسمعه كأنه مجرد تراتيل تعبدية مهومة، لا علاقة لها بواقعيات الحياة البشرية اليومية التي تواجه هذا الخلق المسمى بالإنسان، والتي تواجه هذه الأمة المسماة بالمسلمين! بينما هذه

---

[4] قطب، سيد؛ **في ظلال القرآن**، دار الشروق، ط2، 1980، القاهرة، ج2، ص 2 (مقدمة تفسير سورة آل عمران)

[5] حول كيفية التعامل الأمثل مع القرآن الكريم تلاوة وحفظاً وفهماً وتدبراً وتفسيراً...راجع كتاب الدكتور يوسف القرضاوي: **كيف نتعامل مع القرآن**، ص: 10 – 175، دار الشروق، ط1، 1999، القاهرة.

[6] قطب، سيد؛ **في ظلال القرآن**، ج2، ص 2- 3

الآيات نزلت لتواجه نفوساً ووقائع وأحداثاً حية، ذات كينونة واقعية حية؛ ووجهت بالفعل تلك النفوس والوقائع والأحداث توجيها واقعياً حياً..."[7].

وتكمن ضرورة الاقتداء بمنهج الجيل الأول – منهج السلف الصالح – في التعامل مع القرآن الكريم؛ في كون القرآن معجزة حية باقية إلى قيام الساعة. فمعجزة القرآن الكريم لم تنته بنزوله في وقت مضى وعلى أمة قد خلت! كلا إنها معجزة مستمرة باقية إلى قيام الساعة، قادرة على مواجهة الواقع البشري المرير بكل ألوانه وأشكاله – هو رحمه الله سمى هذا الواقع المؤلم بـ: (الجاهلية المعاصرة). فالقرآن الكريم كتاب حيٌّ قادرٌ حركي ينبض بالحياة والحركة لمواجهة ومقاومة التحديات المختلفة. قال رحمه الله:"...ومعجزة القرآن البارزة تكمن في أنه نزل لمواجهة واقع معين في حياة أمة معينة، في فترة من فترات التاريخ محددة، وخاض بهذه الأمة معركة كبرى حولت تاريخها وتاريخ البشرية كله معها، ولكنه - مع هذا - يعايش ويواجه ويملك أن يوجه الحياة الحاضرة، وكأنما هو يتنزل اللحظة لمواجهة الجماعة المسلمة في شؤونها الجارية، وفي صراعها الراهن مع الجاهلية من حولها، وفي معركتها كذلك في داخل النفس، وفي عالم الضمير، بنفس الحيوية، ونفس الواقعية التي كانت له هناك يومذاك..." [8].

أقول: إن نظرة الأستاذ سيد قطب إلى طريقة تعامل الجيل الأول – جيل السلف الصالح من الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم أجمعين – مع القرآن الكريم فهماً وعملاً، تلقياً وتنفيذاً في واقع حياتهم، لعبت دوراً أساسياً في صقل فهمه لإدراك قوة القرآن الفاعلة وحقيقة حيويته الكامنة ف توجيه الأمة الإسلامية، فقال رحمه الله:"...ولكي نحصل نحن من القرآن على قوته الفاعلة، وندرك حقيقة ما فيه من الحيوية الكامنة، ونتلقى منه التوجيه المدخر للجماعة المسلمة في كل جيل...، ينبغي أن نستحضر في تصورنا كينونة الجماعة المسلمة الأولى التي خوطبت بهذا القرآن أول مرة ...،كينونتها وهي تتحرك في واقع الحياة، وتواجه الأحداث في المدينة وفي الجزيرة العربية كلها؛ وتتعامل مع أعدائها وأصدقائها؛ وتتصارع مع شهواتها وأهوائها؛ ويتنزل القرآن حينئذ ليواجه هذا كله، ويوجه خطاها في أرض المعركة الكبيرة: مع نفسها التي بين جنبيها، ومع أعدائها المتربصين بها في المدينة وفي مكة وفيما حولهما...وفيما وراءهما كذلك..."[9].

لقد أدرك الأستاذ سيد قطب رحمه سر تأثير القرآن الكريم في بالنظر في طريقة معايشة الجيل الأول للقرآن الكريم وفي كيفية تعامله المباشر معه في شؤونه اليومية. لقد كان القرآن خير معلم لهم؛ بسط لهم كلتا

---

7 قطب، سيد؛ **في ظلال القرآن**، ج2، ص 4
8 المصدر السابق، الجزء والصفحة.
9 المصدر السابق

يديه لكي يربيهم ويثقفهم وينهض بهم إذا ما عثروا خطوة خطوة بالتدرج، تماماً مثل الإنساني المربي المشفق والمهتم بمن يربيه، فقال رحمه الله: "...أجل ... يجب أن نعيش مع تلك الجماعة الأولى؛ ونتمثلها في بشريتها الحقيقية، وفي حياتها الواقعية، وفي مشكلاتها الإنسانية؛ ونتأمل قيادة القرآن لها قيادة مباشرة في شؤونها اليومية وفي أهدافها الكلية على السواء؛ ونرى كيف يأخذ القرآن بيدها خطوة خطوة. وهي تعثر وتنهض. وتحيد وتستقيم. وتضعف وتقاوم. وتتألم وتحتمل. وترقى الدرج الصاعد في بطء ومشقة، وفي صبر ومجاهدة، تتجلى فيها كل خصائص الإنسان، وكل ضعف الإنسان، وكل طاقات الإنسان... "[10].

وبعد بيان الأستاذ لهذه الحقيقة التاريخية والمعلم المنهجي في كيفية التعامل مع القرآن الكريم؛ أكد بقوة بأن الأمة الإسلامية بإذن الله ستعيد مجدها وقوتها وفاعليتها بهذا القرآن الكريم؛ إن تعاملت مع القرآن الكريم وفق تلك الأسس والضوابط، ولا يمكن بحال من الأحوال أن يقال للقرآن إنه كتاب قديم لا يصلح لقيادة البشرية؛ كما لا يصلح أن يقال إن الشمس قديمة ولا بد من استبداله بنجم جديد، فهذا أمر مضحك! قال رحمه الله:

"...إننا بهذه النظرة سنرى القرآن حياً يعمل في حياة الجماعة المسلمة الأولى؛ ويملك أن يعمل في حياتنا نحن أيضاً. وسنحس أنه معنا اليوم وغداً. وأنه ليس مجرد تراتيل تعبدية مهومة بعيدة عن واقعنا المحدد، كما أنه ليس تاريخاً مضى وانقضى وبطلت فاعليته وتفاعله مع الحياة البشرية. إن القرآن حقيقة ذات كينونة مستمرة كهذا الكون ذاته. الكون كتاب الله المنظور. والقرآن كتاب الله المقروء. وكلاهما شهادة ودليل على صاحبه المبدع؛ كما أن كليهما كائن ليعمل...والكون بنواميسه ما زال يتحرك ويؤدي دوره الذي قدره له بارئه. الشمس ما زالت تجري في فلكها وتؤدي دورها، والقمر والأرض، وسائر النجوم والكواكب لا يمنعها تطاول الزمان من أداء دورها...، والقرآن كذلك أدى دوره للبشرية، وما يزال هو هو. فالإنسان ما يزال هو هو كذلك. ما يزال هو هو في حقيقته وفي أصل فطرته. وهذا القرآن هو خطاب الله لهذا الإنسان – فيمن خاطبهم الله به. خطاب لا يتغير، لأن الإنسان ذاته لم يتبدل خلقاً آخر، مهما تكن الظروف والملابسات قد تبدلت من حوله، ومهما يكن هو قد تأثر وأثر في هذه الظروف والملابسات ... والقرآن يخاطبه في أصل فطرته وفي أصل حقيقته التي لا تبديل فيها ولا تغيير..." [11].

---

[10] قطب، سيد؛ **في ظلال القرآن**، ج2، ص 2 - 4

[11] المصدر السابق، وانظر : زرواق، نصير؛ **مقاصد الشريعة الإسلامية في فكر الإمام سيد قطب**، دار السلام، ط1، القاهرة، 2009، ص 341 - 363

المطلب الثاني: تأثر الأستاذ بمنهج ذلك الجيل

ما من شك أن القرآن الكريم كلما أعيد قراءته مرة بعد مرة وتارة تلو الأخرى؛ فإن مَعين المعاني الجديدة تتدفق بالقوة وتتولد وتتكاثر من جديد تلقائياً في قلب وعقل قارئ القرآن المخلص، وهذا أمر مجرب لكثير من المخلصين المشتغلين بالقرآن الكريم، ولعل هذه من بركات خدمة ومعجزة القرآن الكريم. فهو يعطي لك العلوم والأسرار والحكم والمعاني بقدر ما أنت تعطي له من الاهتمام والمحافظة والرعاية والإكرام والمحبة والإخلاص والوفاء والعمل. وهذا الذي حدث تماماً مع الأستاذ سيد قطب. لقد امتاز فكر الأستاذ التفسيري بالأصالة والعمق [12]، وكان سر هذا العمق في الفهم، وسر هذه الرزانة هو طول الصحبة للقرآن الكريم تلاوة وفهماً وتدبراً وتفسيراً وعملاً ودعوة إليه؛ "...وهذا يقين نستمده من طول الصحبة لهذا القرآن. وطول الصحبة لذلك للمحاولات البشرية في البيان. وطول المزاولة الشخصية للكتابة فترة من العمر طويلة..." [13].

لقد أدرك رحمه الله أنه يجب أن يكون التعامل مع القرآن الكريم مباشراً دون واسطة، كما أنه ينبغي أن يجعل النص القرآني هو الأساس والمحور يحتكم إليه وينقاد له، ولا ينبغي إخضاع النص القرآني لآرائنا ومعتقداتنا السابقة كما هو الحال مع بعض المنتسبين للعلم. إن كلام العلماء والمفسرين للنصوص القرآنية ليس إلا مجرد عوامل وجسور مساعدة للتعامل مع القرآن، وليس كلام العلماء هو الهدف والمقصد. فهم – رحمه الله جميعاً وجزاهم الله خيراً – قاموا بدور الوسيط والجسر، وبينوا ما فهموا في إطار اجتهادهم الشخصي، ولكنهم لم يغلقوا أبواب الفهم للنصوص القرآنية أو النبوية لمن يأتي بعدهم إذا توفرت فيهم آليات الفهم والاجتهاد. فهذه حقيقة علمية ينبغي أن لا ننساها. يقول الأستاذ رحمه الله: "... سلكت منهجاً قد يكون غريباً بعض الشيء على القارئ الحديث الذي تعود– حتى في البحوث الإسلامية الخالصة، أن يرى الآيات القرآنية تساق لمجرد الاستشهاد في مواضع من البحث على القضية التي يقررها الكاتب بعبارته...، المنهج الذي سلكناه هنا على النقيض من هذا.. منهجنا يحاول أن يجعل النص القرآني هو الأصل الذي يتولى تقرير الحقائق التي يتألف منها البحث، وأن يجعل عبارتنا البشرية مجرد عامل مساعد...نريد لهذا القارئ أن يتعود التعامل مع القرآن ذاته تعاملاً مباشراً. كلما أعوزته حقيقة في شأن من شؤون الحياة كلها، وأراد أن يصل إلى الحق..." [14].

---

[12] انظر: قطب، سيد؛ **مقومات التصور الإسلامي**، دار الشروق، ط4، القاهرة، 1998، ص153-154

[13] المصدر السابق: ص39

[14] قطب، سيد؛ **مقومات التصور الإسلامي**، ص 39

ويقرر الأستاذ سيد هذه القاعدة؛ قاعدة الاستلهام المباشر من القرآن الكريم دون مقررات أو رواسب سابقة، كما أن على الدعاة والمسلمين أن يفهموا العقيدة الإسلامية صافية بأسلوبها الخاص وليس على أسلوب الطريقة الفلسفية. قال رحمه الله: "منهجنا إذن أنْ نستلهم القرآن الكريم مباشرة، وألا نواجهه بمقررات سابقة إطلاقاً، لا مقررات عقلية ولا مقررات شعورية من رواسب الثقافات التي لم نستقها من القرآن ذاته، نحاكم إليها نصوصه، أو نستلهم معاني تلك النصوص وفق تلك المقررات السابقة. لقد جاء النص القرآني –ابتداءً– ليُنشئ المقررات الصحيحة التي يريد الله أنْ تقوم عليها تصورات البشر، وأنْ تقوم عليها حياتهم، وأقلَّ ما يستحقه هذا التفضل من العلي الكبير، أنْ يتلقوها وقد فرّغوا قلوبهم وعقولهم من كل غبشٍ دخيل، ليقوم تصورهم الجديد نظيفاً من كل رواسب الجاهليات –قديمها وحديثها على السواء– مستمداً من تعليم الله وحده، لا من ظنون البشر، التي لا تغني من الحق شيئاً...، لا بدّ أن تُعرض العقيدة بأسلوب العقيدة، إذ أن محاولة عرضها بأسلوب الفلسفة يقتلها ويطفئ إشعاعها وإيحاءها، ويقصرها على جانب واحد من جوانب الكينونة الإنسانية الكثيرة"[15].

من هنا ندرك سر اهتمام الرسول صلى الله عليه وسلم في تحديد وتوحيد مصدر التلقي والتعلم في فترة التكوين الأولى لجيل الصحابة؛ وهو التركيز والاعتماد على كتاب الله سبحانه وحده، لتخلص نفوسهم له وحده ويستقيم عودهم على منهجه وحده. ومن ثم غضب أن رأى عمر بن الخطاب رضي الله عنه يستقي العلم والمعرفة من نبع آخر.. عندما رأى صحيفة من التوراة – أي في يد عمر –، كل ذلك حصل بغرض صنع جيل خالص القلب، خالص العقل، خالص التصور، خالص الشعور، خالص التكوين، مصون من مؤثر آخر غير المنهج الإلهي..[16]. ولا يمكننا صناعة جيل تلك هي صفاتهم ومناقبهم إلا بالتعلم من طريقة ذلك الجيل في تعاملهم مع القرآن الكريم، والذي عاصر نزول القرآن وملابساته وظروفه الاجتماعية والنفسية. ولقد نوه الأستاذ سيد قطب أكثر من مرة إلى أن الجيل الأول كان يقرأ القرآن ليتلقى أمر الله في خاصة شأنه وشأن الجماعة التي يعيش فيها بهدف العمل والتطبيق وليس بهدف الدراسة والثقافة والمتاع: " ...إن منهج التلقي للتنفيذ والعمل هو الذي صنع الجيل الأول. ومنهج التلقي للدراسة والمتاع هو الذي خرج الأجيال التي تليه "[17].

وقد يعترض معترض على هذه الحقيقة التاريخية أو القاعدة المنهجية، غير أن الأستاذ سيد قطب سرعان ما فصل وأزال هذا الإشكال المنهجي العالق في أذهان الكثيرين من الناس قائلاً:

---

[15] قطب، سيد؛ **خصائص التصور الإسلامي ومقوماته**، ص13

[16] قطب، سيد؛ **المستقبل لهذا الدين**، الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية، ط1، مطبعة الفيصل، 1988، ص17

[17] قطب، سيد؛ **معالم في الطريق**، دار القلم، ط3، بيروت، 2001، ص: 19

"...إن طبيعة هذا الدين ترفض اختزال المعارف الباردة في ثلاجات الأذهان الجامدة! إن (المعرفة) في هذا الدين تتحول لتوها إلى (حركة) وإلا فهي ليست من جنس هذا الدين!...، وحين كان القرآن يتنزل، لم يتنزل بتوجيه أو حكم إلا لتنفيذه لساعته أي ليكون عنصراً حركياً في المجتمع الحي...، إن كل نص قرآني يمثل استجابة حية لحالة واقعة أو دفعة حية لإنشاء حالة مطلوبة...، ومن ذلك تنزلت الأحكام التشريعية كلها في المدينة كحركة في المجتمع المسلم الذي قام هناك، ولم ينزل حكم واحد منها في مكة ليختزن- كمعرفة مجردة، حتى يجيء وقت التنفيذ في المدينة!...، إن المعرفة للمعرفة ليست منهجاً إسلامياً...، في الإسلام المعرفة للحركة. والعلم للعمل، والعقيدة للحياة..." [18].

ومن خصائص ذلك الجيل الأول أن أحدهم عندما كان يعتنق الإسلام فهو كان يبدأ عهداً جديداً في حياته ويطوي صفحة الماضي – الجاهلية - بأكملها؛ وينعزل من الماضي عن طريق عزلة شعورية في داخل نفسه، وإن بدى في ظاهر الأمر أنه يتاجر ويتعامل مع المجتمع الجاهلي من حوله. لقد أشار الأستاذ إلى هذه الحقيقة قائلاً: "...لقد كان الرجل حين يدخل الإسلام يخلع على عتبته كل ماضيه في الجاهلية. كان يشعر في اللحظة التي يجيء فيها إلى الإسلام أنه يبدأ عهداً جديداً...،كانت هناك عزله شعورية كاملة بين ماضي المسلم في جاهليته وحاضره في إسلامه، تنشأ عنها عزلة كاملة في صلاته بالمجتمع الجاهلي من حوله وروابطه الاجتماعية...،حتى ولو كان يأخذ من بعض المشركين ويعطي في عالم التجارة ـ اليومي – فالعزلة الشعورية شيء والتعامل اليومي شيء آخر..."[19].

المبحث الثاني: قضايا دينية معاصرة من منظور الأستاذ

لقد كان للإسلام فضل عظيم في إنقاذ الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور؛ من ظلمات الشرك إلى نور التوحيد الخالص، من ظلمات الجور إلى نور العدل والمساواة، من ظلمات الخرافة والتقليد الأعمى إلى نور العقل والبرهان الساطع، من ظلمات الفرضيات والشكوك إلى نور الحقائق واليقينيات. يقول الأستاذ سيد قطب: " جاء الإسلام، وفي العالم ركام هائل، من العقائد والتصورات، والفلسفات، والأساطير، والأفكار والأوهام، والشعائر والتقاليد، والأوضاع والأحوال...يختلط فيها الحق بالباطل، والصحيح بالزائف، والدين بالخرافة، والفلسفة بالأسطورة...والضمير البشري – تحت هذا الركام الهائل – يتخبط في ظلمات

[18] قطب، سيد؛: **مقومات التصور الإسلامي ـ القسم الثاني،** ص 15 – 30؛ وانظر: **خصائص التصور الإسلامي ـ القسم الأول،** للمؤلف سيد قطب، ص10

[19] قطب، سيد؛ **معالم في الطريق،** ص19-20

وظنون، لا يستقر منها على يقين. والحياة الإنسانية – بتأثير هذا الركام الهائل- تتخبط في فساد وانحلال، وفي ظلم وذل، وفي شقاء وتعاسة، لا تليق بالإنسان، بل لا تليق بقطيع من الحيوان!"[20]. وفيما يلي من المطالب مناقشة بعض القضايا العقيدية والاجتماعية والسياسية والأخلاقية من منظور الأستاذ سيد قطب، والله الموفق والهادي والمعين.

المطلب الأول: التصور الاعتقادي في الإسلام: المضمون والأبعاد

يرى الأستاذ سيد قطب رحمه الله أن الإسلام منهج إلهي شامل وكامل منظم لحياة الإنسان بأكمله وفي كل المجالات، ولكون الإسلام موصوفاً بهذه الخصائص والمميزات، فقد تعب الأعداء نفسياً وفكرياً في توجيه الهجمات المختلفة على الإسلام، مشيراً إلى أن المبادئ الإسلامية في جملتها ما هي إلا:

"...منهج يشمل التصور الاعتقادي الذي يفسر طبيعة الوجود ويحدد مكان الإنسان في هذا الوجود، كما يحدد غاية وجوده الإنساني...،ويشمل النظم والتنظيمات...،كالنظام الأخلاقي...،وخصائصه، والنظام الاجتماعي وأسسه ومقوماته، والنظام الاقتصادي وفلسفته وتشكيلاته والنظام الدولي وعلاقته وارتباطاته[21]،...لقد كانت هذه الخصائص في هذا الدين...،خصائص الشمول والواقعية والهيمنة...،هي التي تعبت منها الصليبية في هجومها على الأمة المسلمة...، في الوطن الإسلامي كما أنها هي التي تعبت منها الصهيونية العالمية كذلك[22]. ولإبراز أهمية وحقيقة التصور الاعتقادي في الإسلام، فإننا نفضل عرض فكر الأستاذ حول هذه المسألة من خلال النقاط التالية:

أولاً: أثر العقيدة الإسلامية على الناس

ولكون الإسلام منهجاً إلهياً فإن أثر وفضل هذا المنهج الإلهي كان كبيراً، يظهر ذلك واضحاً في كونه أنه استطاع خلال فترة وجيزة جداً أن يؤثر في حياة البشر وعاداتهم وتقاليدهم وعقائدهم وجعل منهم أئمة وقادة للعالم بعد أن كانوا في أحط المستوى البشري سواء من الناحية الدينية أو السياسية أو الاجتماعية والخلقية، قائلاً: " لقد استطاعت تلك الفترة أن تنشئ في واقع الحياة البشرية عدداً كبيراً من الشخصيات النموذجية تتمثل فيها الإنسانية العليا بصورة غير مسبوقة، فإن البناء الروحي والاجتماعي والسياسي، الذي قام على أساس هذا المنهج السامق الفريد والذي لم يستغرق بناؤه سوى قرن واحد من الزمان- بل ونصف قرن في الحقيقة، قد ظل يقاوم...، جميع العدوات التي ساورته وجميع الهجمات الوحشية التي شنت عليه...،

---

[20] قطب، سيد؛ **خصائص التصور الإسلامي ومقوماته**، ص 19

[21] قطب، سيد؛ **المستقبل لهذا الدين**، ص3

[22] المرجع السابق، ص 5؛ وانظر: مقدمة كتاب: **نحو مجتمع إسلامي**، للأستاذ سيد قطب، ص 2- 3

أكثر من ألف عام...، فما تزال هذه الأصول قادرة على البعث الجديد حين يعتنقها جيل جديد"[23]، حيث أن السر في هذا الأمر هو تعامل هذا المنهج مع الفطرة الإنسانية، كما أشار الأستاذ إلى ذلك: "والسر الكامن فيه هو تعامله المباشر مع الفطرة واستمداده المباشر من رصيدها المكنون. وهو رصيد هائل، ورصيد دائم، وحيثما التقى مع هذا المنهج تفجرت ينابيع الثروة وفاض فيضه المكنون..." [24]، معللاً سر هذه القضية قائلاً: "...إنه منهج سامق فعلاً ولكنه في الوقت ذاته منهج فطري يعتمد على رصيد الفطرة...،وحين تستقيم النفس مع فطرتها وحين تلبي حاجاتها وأشواقها وحين تطلق طاقاتها للعمل والبناء، فإنها تجرى مع الحياة في يسر وطواعية..." [25].

ويرى الأستاذ سيد قطب أن ازدهار الشريعة الإسلامية في فترة تاريخية مضت لا يعني عدم قدرة عودتها مرة أخرى! لأن الذي حدث لم تكن معجزة خارقة لا تتكرر! وإنما تم ذلك بجهد بشري وحدود طاقتهم، قال رحمه الله: " ...وهذا الذي يحدث لم يتم بمعجزة خارقة لا تتكرر ولكنه تحقق- وفق سنة الله الدائمة- بجهد بشري وفي حدود الطاقة البشرية فدلت هذه السابقة على إمكان تكرار هذه الظاهرة" [26].

ثانياً: جوعة خاصة لا يسدها إلا هذه العقيدة الربانية

وأما عن عظمة هذا المنهج الإلهي وحاجة الناس إليه فيقارنها الأستاذ بنوع خاص من الجوع الذي لا يسد مكانه إلا هذا الغذاء الروحي الرباني؛ وهو الإيمان بالله العلي الكبير، قائلاً: " ولقد يُشغِل الإنسانُ بعضَ الوقت بجوعة الجسد، وما يتعلق بها من الإنتاج بشتى وسائله وصنوفه، ومن المتاع الحسي بشتى ألوانه ومذاقاته...ولكن هذه الجوعة وكل ما يتعلق بها لا تستغرق الكينونة الإنسانية، وإشباعها لا يسد سائر الجوعات (الإنسانية). وما أن تهدأ هذه الجوعة حتى تتحرك في الكائن الإنساني جوعة أخرى. جوعة لا يسدها الطعام، ولا يرويها الشراب، ولا يكفيها الكساء، ولا تسكنها كل ضروب المتاع...! إنها جوعة من نوع آخر! جوعة إلى الإيمان بقوة أكبر من البشر؛ وعالم أكبر من المحسوس؛ ومجال أكبر من الحياة الدنيا...! وجوعة إلى الوئام بين ضمير الإنسان وواقعه، بين الشريعة التي تحكم ضميره والشريعة التي تحكم حياته. بين منهج حركته الذاتية ومنهج الحركة الكونية من حوله. جوعة إلى (إله) واحد؛ يتلقى منه شريعة قلبه وشريعة

[23] قطب، سيد؛ **خصائص التصور الإسلامي**؛:ص28
[24] المصدر السابق: ص41-42
[25] المصدر السابق: ص28-29
[26] المصدر السابق: ص45

مجتمعه على السواء... [27] . فإذا ما اعترف الإنسان المسلم بهذا المنهج الإلهي، فإنه يجب أن يتذكر بأن دين الله لا يمكن أن يكون محكوماً أو مقوداً، وإنما يكون حاكماً أو قائداً، متبوعاً وليس تابعاً. يقول رحمه الله:

" ...كلا إن (دين الله) لا يرضى إلا أن يكون سيداً مهيمناً قوياً متصرفاً، عزيزاً كريماً، حاكماً لا محكوماً. قائداً لا مقوداً..."[28]، كما أن هذا الدين المتمثل في رسالة الإسلام لا يتعارض مع العلم ولا يطرد العلوم المادية ونتائجها، وليس بديلاً عن العلم والحضارة، ففي هذا الصدد يقول الأستاذ: "...إن الدين ليس بديلاً من العلم والحضارة، ولا عدواً للعلم والحضارة، إنما هو إطار للعلم والحضارة، ومحور للعلم والحضارة، ومنهج للعلم والحضارة في حدود إطاره ومحوره الذي يحكم كل شؤون الحياة..." [29] .

ثالثاً: الصبر والثبات أمام ضخامة الباطل

وقد يقول قائل بأن الذي يحول بيننا وبين تطبيق الشريعة الإسلامية أو عودة الإسلام إلى حياة المسلمين من جديد هو: ضخامة الباطل المتمثل في جاهلية أبناء هذا القرن في ظل الظروف الراهنة، كما أن جاهلية هذا القرن تتميز بالمكر والخبث والتعقيد، بخلاف الجاهلية الأولى، حيث كان فيها شيء من السذاجة والفتوة. يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله: "...فالجاهلية الأولى كانت جاهليات جهل وسذاجة وفتوة، أما الجاهلية الحاضرة فجاهلية علم وتعقيد واستهتار وأن البشرية اليوم تعاني من التميّع والاستهتار والاستخفاف بالعقيدة؛ بكل عقيدة، وكل رأي، وكل مذهب، كما تعاني من نفاق القلب وكيد الضعف، وخبث الاحتيال، وكلها عقبات في طريق الدعوة على الله ومعوقات عن الاستقامة على منهج الله..."[30].

إننا، إذن بصدد إنجاز مشروع ضخم على مدى الحياة؛ إلى الموت، وهذا يقتضي الصبر والثبات والتمسك وعدم الاستسلام للضربات الموجعة من قبل أهل الباطل، ولكن بما أننا على الحق فيجب الثبات والصمود، ويذكرنا الأستاذ بهذه النصيحة:

" نحن اليوم في مثل هذا الموقف بكل ملابساته وكل سماته، مع الجاهلية كلها من حولنا فلا يجوز– من ثم– أن ينقصنا اليقين في العاقبة المحتومة، التي يشير إليه كل شيء من حولنا...ومن ثم ينبغي ألا يخالجنا الشك في أن ما وقع مرة في مثل هذه الظروف لا بد أن يقع. ولا يجوز أن يتطرق إلى قلوبنا الشك بسبب ما

---

[27] قطب، سيد؛ **المستقبل لهذا الدين،** ص69؛ وانظر: فصل: **ألوهية وعبودية،** من كتاب: **مقومات التصور الإسلامي،** ص101

[28] المرجع السابق، ص93. وانظر: فصل: **ألوهية وعبودية مقومات التصور الإسلامي،** ص87؛ وراجع أيضاً هذه الصفحات: 134،132،109،107 من نفس المصدر؛ وانظر: **نحو مجتمع إسلامي،** للأستاذ سيد قطب، فصل: **نظام رباني،** ص150-152، وأيضاً : **مقومات التصور الإسلامي،** فصل: **ألوهية،** ص146

[29] قطب، سيد؛ **المستقبل لهذا الدين؛** ص103؛ وانظر: **معالم في الطريق،** للأستاذ سيد قطب، ص:70

[30] قطب، سيد؛ **خصائص التصور الإسلامي** ، ص95-96

نراه من حولنا من الضربات الوحشية التي تكال لطلائع البعث الإسلامي في كل مكان ولا بسبب ما نراه كذلك من ضخامة الأسس التي تقوم عليها الحضارة المادية...، إن الذي يفصل في الأمر ليس هو ضخامة الباطل، وليس هو قوة الضربات التي تكال للإسلام إنما الذي يفصل في الأمر قوة الحق ومدى الصمود للضربات...". وبسبب غروب شمس الحضارة الغربية وإفلاسها في عالم القيم –كما عبر الأستاذ – "...تقف البشرية اليوم على حافة الهاوية لا بسبب التهديد بالفناء المعلق على رأسها فهذا عرض للمرض وليس هو المرض...ولكن بسبب إفلاسها في عالم القيم...لم يعد لديه ما يعطيه للبشرية من القيم..." [31] .

رابعاً: الزاد المطلوب للثبات

فإذا كانت هذه حال جاهلية اليوم وحقيقتها، فلا بد من زاد يقوينا ويمكننا على السير على هذا الطريق والثبات أمام الجاهلية. فما الزاد المطلوب للسير والثبات على هذا المنهج الصعب والمعقد؟ يوصي رحمه الله بالتزود بالزاد المطلوب والمفقود لدى كثير من الناس، وهذا الزاد هو زاد واحد؛ هو الثقة المطلقة بوعد الله ونصره وتأييده لعباده المؤمنين "...إنه الشعور بالله على حقيقة، أنه التعامل مباشر مع الله، والثقة المطلقة بوعده الجازم الحاسم.."[32]، وأن "...حاجة البشر إلى هذا الدين أكبر من حقد الحاقدين على هذا الدين..."[33]. ومما لا شك فيه أن هذا المفهوم مستخلص من الآيات القرآنية مثل قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾[محمد: ٧]، وقوله تعالى: ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾[آل‌عمران: ١٦٠]

خامساً: مواصفات المنهج والعقيدة الربانية

ومقابل هذا الإفلاس القيمي عند هؤلاء يأتي المنهج الإسلامي منقذاً للإنسانية جمعاء، موصوفاً بقيم وخصاص ربانية المصدر وربانية الوجهة. إنه منهجي مبني على العلم والقوة والحكمة والعبودية المطلقة لله سبحانه، حيث يقول رحمه الله:

" ...قاعدة المنهج الرباني الصادر عن علم بدل الجهل وكمال بدل النقص وقدرة بدل الضعف وحكمة بدل الهوى القائم على أساس: إخراج البشر من عبادة العباد إلى[34]، عبادة الله وحده دون

---

[31] قطب، سيد؛ **المستقبل لهذا الدين** ، ص 43 - 44

[32] المرجع السابق، ص 96

[33] قطب، سيد؛ **المستقبل لهذا الدين**، ص 3- 4

[34] المرجع السابق، ص4، ويراجع فصل " **الربانية** " في كتاب: **خصائص التصور الإسلامي** ، للأستاذ سيد قطب، ص43. وانظر: فصل"**الألوهية وعبودية** " في كتاب: **مقومات التصور الإسلامي**، للأستاذ سيد قطب، ص152

سواه[35]...". وبسبب كون هذا المنهج متصفاً بهذه الصفات والمميزات اقتضت الحكمة الإلهية أن تكون هناك فروق عديدة بينه وبين المناهج أو النظم الوضعية الأخرى، وإن اختلفت وتعددت أسماؤها، فيقول رحمه الله:"...أن مفرق الطريق بين منهج هذا الدين وسائر المناهج غيره، أن الناس في نظام الحياة الإسلامية يعبدون إلها واحداً يفردونه بالألوهية والربوبية والقوامة....، بينما هم في سائر النظم يعبدون آلهة وأرباباً متفرقة يجعلون لها القوامة عليهم من دون الله...، وهم مثلهم بشر... عبيد كما أنهم عبيد... ونحن نسمي هذه النظم التي يعبد الناس كما يسميها الله؛ نظماً جاهلية مهما تعددت أشكالها وبيئاتها وأزمانها...[36]. هذه المفاهيم لا شك أن الأستاذ سيد توصل إليها من خلال قراءته وفهمه للآيات القرآنية مثل قوله تعالى: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]، وقوله تعالى: ﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢]، قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٣٠، وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ [الشورى: ١٩].

سادساً: الالتزام بهذا المنهج حتى يكون المسلم في دين الله

علل الأستاذ ضرورة الالتزام بالمنهج الرباني الأصيل لتصديق الولاء لله والانتماء للإسلام، لأن الإنسان إذا خضع لمنهج ما – بغض النظر عن كونه بشرياً أو ربانياً فهو على دين ذلك المنهج شاء أم أبى. قال رحمه الله: "...أن كل منهج للحياة هو (دين). فدين جماعة من البشر هو البشر الذي يصرّف حياة هذه الجماعة، غير أنه إن كان المنهج الذي يصرّف حياة هذه الجماعة من صنع الله أي منبثقاً من تصور اعتقادي رباني فهذه الجماعة في (دين الله)، وإن كان المنهج الذي يصرف حياة هذه الجماعة من صنع الملك، أو الأمير، أو القبيلة أو الشعب، (أي منبثقاً من مذهب أو تصور أو فلسفة بشرية) فهذه الجماعة في (دين الملك) أو (دين الأمير) أو (دين القبيلة) أو (دين الشعب). وليست في (دين الله) لأنها لا تتبع منهج الله، المنبثق ابتداء من دين الله دون سواه. و(دين الله) هو الذي يقدم التفسير الشامل الكامل للوجود وعلاقته بخالقه العظيم[37]، ولا شك أن هذا المفهوم مستنبط من قوله تعالى: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

---

35 قطب، سيد؛ **المستقبل لهذا الدين**، ص 3- 7

36 المرجع السابق، ص5

37 قطب، سيد؛ **المستقبل لهذا الدين** ، ص18

سابعاً: لا فصل للدين عن الدنيا في الإسلام

ولقد كان من أهم صفات وخصائص هذا الدين الإلهي المنزل على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم خاصية الشمول؛ فلا يعقل لدينٍ هذه ميزته أن ينفصل عن تنظيم كافة شؤوننا في الحياة الدنيا؛ سياسياً أو اقتصادياً أو اجتماعياً أو أخلاقياً، إذ لا معنى لهذا الدين والنظام الإلهي أن ينحصر في ركن ضيق من أركان العبادة فقط! وفي هذا الصدد يقول رحمه الله:

" ...فإنه لا معنى للدين أصلاً إذا هو تخلى عن تنظيم الحياة الواقعية، بتصوراته الخاصة، ومفاهيمه الخاصة وشرائعه الخاصة، وتوجيهاته الخاصة..."[38]، و"...ليس من طبيعة (الدين) أن ينفصل عن الدنيا، وليس من طبيعة المنهج الإلهي أن ينحصر في المشاعر الوجدانية والأخلاقيات التهذيبية والشعائر التعبدية أو في ركن ضيق من أركان الحياة البشرية...ركن ما يسمونه (الأحوال الشخصية)..."[39]، و"...ليس من طبيعة (الدين) أن يشرع طريقاً للآخرة لا يمر بالحياة الدنيا! طريقاً ينتظر الناس في نهايته فردوس الآخرة عن غير طريق العمل في الأرض وعمارتها، والخلافة فيها عن الله وفق منهجه الذي ارتضاه..." [40]. وقد سمى الأستاذ هذا الفصل للدين عن الدنيا بـ: **الفصام النكد**، والذي تولد في ظل ظروف أوربية نكدة خاصة بها وبالكنيسة الأوربية[41] ولا علاقة لها بالإسلام وتاريخ المسلمين البتة، وكان من نتائجها فصل الدين عن الدولة. قال رحمه الله:

"... لقد تم ذلك (الفصام النكد) في ظروف نكدة! وكانت له آثاره المدمرة في أوروبا...، ثم في الأرض كلها، حين طغت التصورات الغربية، والأنظمة الغربية، والأوضاع الغربية، على البشرية كلها في مشارق الأرض ومغاربها...،ولم يكن بد- وقد انفصمت حياة المخاليق عن منهج الخالق- أن تسير في هذا الطريق البائس؛ وأن تنتهي إلى هذه النهاية التعيسة؛ وأن تحيط بالبشر الدائرة التي يتعذبون الآن في داخلها، ويذوق بعضهم بأس بعض، بينما هم عاجزون عن معرفة طريق الخلاص منها.. وهم يصطرخون فيها..!!.[42]

وإذا عرفت شيئاً من عظمة منهج الإسلام ، فقد تبين لك سبب محاربة الأعداء للإسلام وأهله في كل عصر وكل مصر، في كل وقت وكل حين، حيث يقول الأستاذ:"...ومن أجل هذه الخصائص في

---

[38] : المرجع السابق، ص25

[39] قطب، سيد؛ **المستقبل لهذا الدين**، ص27

[40] المرجع السابق، ص18

[41] للتفاصيل حول الكنيسة والمسيحية واليهودية المحرفة... انظر: يوسف، محمد حسن؛ **الصفحة السوداء للكتاب المقدس**، دار الكتاب العربي، ط 1، 2006، القاهرة، ص: 79 -121

[42] قطب، سيد؛ **المستقبل لهذا الدين** ، ص 18-19

الإسلام يحاربه أعداؤه هذه الحرب المنكرة، لأنه يقف لهم في الطريق، يعوقهم عن أهدافهم الاستعمارية الاستغلالية، كما يعوقهم عن الطغيان والتأله في الأرض كما يريدون! ومن أجل هذه الخصائص يطلقون عليه حملات القمع والإبادة كما يطلقون عليه حملات التشويه والخداع والتضليل..." [43].

المطلب الثاني: آصرة التجمع والوحدة

وفي تعقيب الأستاذ سيد قطب لتفسير الآية السابقة من سورة الأنفال ناقش الآليات الفعالة للتجمع والوحدة بين المسلمين. تركزت هذه الآليات على رابطة العقيدة الإسلامية دون الأواصر الأخرى، حتى تبرز إنسانية الإنسان وإعلاء هذا الجانب على الجوانب الأخرى، قائلاً:

" وبعد فإن الإسلام – وهو يبني الأمة المسلمة على هذه القاعدة وفق هذا المنهج ؛ ويقيم وجودها على أساس التجمع العضوي الحركي؛ ويجعل آصرة هذا التجمع هي العقيدة – إنما كان يستهدف إبراز "إنسانية الإنسان" وتقويتها وتمكينها ، وإعلاءها على جميع الجوانب الأخرى في الكائن الإنساني. وكان يمضي في هذا على منهجه المطرد في كل قواعده وتعليماته وشرائعه وأحكامه..."[44].

إذن؛ فلسفة الإسلام في التركيز على ضرورة التجمع والوحدة على آصرة وقاعدة العقيدة كان بغرض إبراز إنسانية الإنسان وتقويتها وتمكينها وإعلائها على بقية الجوانب. لقد صدق رحمه الله فيما ذهب إليه لأن رابطة العقيدة والدين هي رابطة أصيلة فطرية ربانية؛ فطر الله الناس عليها قبل أن يخلق الله الناس أجمعين، لا تبديل لخلق الله. فالناس جميعاً قد أقروا بوحدانية الله وربوبيته وألوهيته وحاكميته قبل أن يُخلقوا، فهم حنفاء مسلمون من الأزل، ولكن الشياطين من الإنس بقوانينهم وتشريعاتهم وأعرافهم اجتالتهم وصرفتهم عن الجادة. قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، وكما جاء في الحديث القدسي بألفاظ متقاربة: فقد روى الإمام أحمد في مسنده من حديث عياض أَنّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ فِي خُطْبَتِهِ ...وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا..." [45].

---

[43] قطب، سيد؛ **المستقبل لهذا الدين**، ص: 58-59

[44] المصدر السابق، ج3، ص 1559

[45] **مسند الإمام أحمد**، تحقيق الشيخ شعيب الأرنوؤط و عادل مرشد، مؤسسة الرسالة، ط1، 2001، رقم الحديث:523؛ **وصحيح الإمام مسلم بشرح النووي**، دار القلم، ط2، 2003، بيروت، برقم: 2866

ثم إن الاستاذ سيد قطب ذكر القول الفصل في هذه المسألة مؤكداً أنه لا شيء يدانيه من آصرة العقيدة...كل الآليات الأخرى للتجمع والوحدة تتلاشى أمامها مهما كان الأمر، قال رحمه الله:

"...إنه لا يجعل هذه الآصرة هي النسب، ولا اللغة، ولا الأرض، ولا الجنس، ولا اللون، ولا المصالح، ولا المصير الأرضي المشترك...فهذه كلها أواصر يشترك فيها الحيوان مع الإنسان. وهي أشبه شيء وأقرب شيء إلى أواصر القطيع، وإلى اهتمامات القطيع، وإلى الحظيرة والمرعى والثغاء الذي يتفاهم به القطيع! أما العقيدة التي تفسر للإنسان وجوده، ووجود هذا الكون من حوله تفسيراً كلياً؛ كما تفسر له منشأ وجوده ووجود الكون من حوله، ومصيره ومصير الكون من حوله؛ وترده إلى كائن أعلى من هذه المادة وأكبر وأسبق وأبقى، فهي أمر آخر يتعلق بروحه وإدراكه المميز له من سائر الخلائق، والذي ينفرد به عن سائر الخلائق؛ والذي يقرر "إنسانيته" في أعلى مراتبها ؛ حيث يخلف وراءه سائر الخلائق.

ثم إن هذه الآصرة – آصرة العقيدة والتصور والفكرة والمنهج – هي آصرة حرة؛ يملك الفرد الإنساني اختيارها بمحض إرادته الواعية. فأما أواصر القطيع تلك فهي مفروضة عليه فرضاً، لم يخترها ولا حيلة له كذلك فيها...إنه لا يملك تغيير نسبه الذي نماه؛ ولا تغيير الجنس الذي تسلسل منه؛ ولا تغيير اللون الذي ولد به. فهذه كلها أمور قد تقررت في حياته قبل أن يولد، لم يكن له فيها اختيار، ولا يملك فيها حيلة ...كذلك مولده في أرض بعينها، ونطقه بلغة بعينها بحكم هذا المولد، وارتباطه بمصالح مادية معينة ومصير أرضي معين – ما دامت هذه هي أواصر تجمعه مع غيره – كلها مسائل عسيرة التغيير؛ ومجال "الإرادة الحرة " فيها محدود...ومن أجل هذا كله لا يجعلها الإسلام هي آصرة التجمع الإنساني...فأما العقيدة والتصور والفكرة والمنهج، فهي مفتوحة دائماً للاختيار الإنساني، ويملك في كل لحظة أن يعلن فيها اختياره؛ وأن يقرر التجمع الذي يريد أن ينتمي إليه بكامل حريته؛ فلا يقيده في هذه الحالة قيد من لونه أو لغته أو جنسه أو نسبه، أو الأرض التي ولد فيها...،

ثم ذكر الأستاذ سيد قطب النتائج الباهرة من هذا المنهج الإلهي، مشيراً إلى عظمة الإسلام وسعته ورحمته أن جعل رابطة العقيدة هي الأساس لجميع الأقوام والأجناس، وأن بوتقة العقيدة هي البوتقة الوحيدة التي يجب تنصب فيها خصائص الأجناس البشرية بمختلف أطيافها وشرائحها حتى تتمازج وتنصهر فيما تلك الفروقات القومية والطبقية والجهوية والسلطوية مسجلاً نماذج تاريخية من الشعوب والحضارات الأخرى قائلاً:

"...كان من النتائج الواقعية الباهرة لهذا المنهج أن أصبح المجتمع المسلم مجتمعاً مفتوحاً لجميع الأجناس والأقوام والألوان واللغات، بلا عائق من هذه العوائق الحيوانية السخيفة! وأن صبت في بوتقة المجتمع

الإسلامي خصائص الأجناس البشرية وكفاياتها؛ وانصهرت في هذه البوتقة وتمازجت؛ وأنشأت مركباً عضوياً فائقاً في فترة تعد نسبياً قصيرة؛ وصنعت هذه الكتلة العجيبة المتجانسة المتناسقة حضارة رائعة ضخمة تحوي خلاصة الطاقة البشرية في زمانها مجتمعة...، لقد اجتمع في المجتمع الإسلامي المتفوق: العربي والفارسي والشامي والمصري والمغربي والتركي والصيني والهندي والروماني والإغريقي والأندونسي والإفريقي... إلى آخر الأقوام والأجناس. وتجمعت خصائصهم كلها لتعمل متمازجة متعاونة متناسقة في بناء المجتمع الإسلامي والحضارة الإسلامية. ولم تكن هذه الحضارة الضخمة يوماً ما" عربية " إنما كانت دائماً "إسلامية " . ولم تكن يوماً ما "قومية " إنما كانت دائماً " عقيدية "...ولقد اجتمعوا كلهم على قدم المساواة، وبآصرة الحب، وبشعور التطلع إلى وجهة واحدة...، وتبرز فيها" إنسانيتهم" وحدها بلا عائق...وهذا ما لم يتجمع قط لأي تجمع آخر على مدار التاريخ...لقد كان أشهر تجمع بشري في التاريخ القديم هو تجمع الإمبراطورية الرومانية مثلاً . فقد ضمت بالفعل أجناساً متعددة؛ ولغات متعددة، وأرضين متعددة... ولكن هذا كله لم يقم على آصرة "إنسانية " ولم يتمثل في قيمة عليا كالعقيدة.. .،كذلك قامت في التاريخ الحديث تجمعات أخرى...تجمع الإمبراطورية البريطانية مثلاً ...ولكنه كان كالتجمع الروماني الذي هو وريثه! تجمعاً قومياً استغلالياً؛ يقوم على أساس سيادة القومية الإنجليزية، واستغلال المستعمرات التي تضمها الإمبراطورية ...ومثله الإمبراطوريات الأوربية كلها: الإمبراطورية الأسبانية والبرتغالية في وقت ما، والإمبراطورية الفرنسية[46]...وكلها في ذلك المستوى الهابط البشع المقيت! وأرادت الشيوعية أن تقيم تجمعاً من نوع آخر، يتخطى حواجز الجنس والقوم والأرض واللغة واللون. ولكنها لم تقمه على قاعدة "إنسانية " عامة. إنما أقامته على القاعدة" الطبقية "...فكان هذا التجمع هو الوجه الآخر للتجمع الروماني القديم...، باعتبار أن "المطالب الأساسية " للإنسان هي "الطعام والمسكن والجنس" – وهي مطالب الحيوان الأولية – وباعتبار أن تاريخ الإنسان هو تاريخ البحث عن الطعام !!! والذين يعدلون عنه إلى أي منهج آخر، يقوم على أية قاعدة أخرى من القوم أو الجنس أو الأرض أو الطبقة... إلى آخر هذا النتن السخيف هم أعداء الإنسان حقاً !...، ليعودوا بالإنسان إلى التجمع على مثل ما تتجمع عليه "البهائم" من الحظيرة والكلأ! بعد أن رفعه الله إلى ذلك المقام الكريم الذي يتجمع فيه على ما يليق أن تتجمع عليه "الناس" !

[46] والإمبراطورية السلافية الروسية والصربية عندنا في الجزيرة البلقانية – البوسنة والهرسك وكوسوفا ومقدونيا والجبل الأسود وصربيا منذ القرن السابع عشر إلى القرن العشرين- (الحرب الأخيرة 1990 – 1995 في البوسنة والهرسك، والحرب في كوسوفا 1997-1999)

وأعجب العجب أن يسمى التجمع على خصائص الإنسان العليا تعصباً وجموداً ورجعية، وأن يسمى التجمع على مثل خصائص الحيوان تقدماً ورقياً ونهضة...، ولكن الله غالب على أمره...وهذه الانتكاسات الحيوانية الجاهلية في حياة البشرية لن يكتب لها البقاء...وسيكون ما يريده الله حتماً..." [47].

المبحث الثالث: قضايا اجتماعية معاصرة من منظور الأستاذ

المطلب الأول: طبيعة المجتمع الكافر وكيفية مواجهته

إن التعرف على سمات وملامح المجتمع الذي لا يدين بدين الإسلام؛ أمر ضروري لا محالة، أخذاً للحيطة والحذر وخشية الوقوع في مخالب ومكر أعداء الإسلام وأعداء أولياء الرحمن. فهم جسد واحد؛ كيان واحد؛ لهم هدف واحد، كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾[الجاثية: ١٩]، وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [المائدة: ٥١]. إن المجتمع الكافر كتلة واحدة وله كيان عضوي واحد، وبناء على هذه التركيبة العضوية فهو يتحرك ويدافع ويكافح على هذا الأساس؛ وإذا ما أراد المسلمون مواجهتهم فلا بد للمسلمين إلا أن يواجهوا هؤلاء إلا بنفس الصورة والطريقة، وبنفس المميزات والخصائص والخطط والأساليب التي للمجتمع الكافر سواء بسواء. وإذا فهم المسلمون هذه الحقيقة وتصرفوا في تحقيق الولاء للمسلمين والبراء من أعدائهم بهذا المفهوم وبهذه الصورة؛ ستكون النتيجة مباركة، وإلا ستكون هنالك فتنة وفساد كبير في الأرض. وفي تفسير الأستاذ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾[الأنفال: ٧٣] قال رحمه الله:

" إن الأمور بطبيعتها كذلك – كما أسلفنا. إن المجتمع الجاهلي لا يتحرك كأفراد؛ إنما يتحرك ككائن عضوي، تندفع أعضاؤه، بطبيعة وجوده وتكوينه، للدفاع الذاتي عن وجوده وكيانه. فهم بعضهم أولياء بعض طبعاً وحكماً...ومن ثم لا يملك الإسلام أن يواجههم إلا في صورة مجتمع آخر له ذات الخصائص، ولكن بدرجة أعمق وأمتن وأقوى. فأما إذا لم يواجههم بمجتمع ولاؤه بعضه لبعض، فستقع الفتنة لأفراده من المجتمع الجاهلي – لأنهم لا يملكون مواجهة المجتمع الجاهلي المتكافل أفراداً – وتقع الفتنة في الأرض عامة بغلبة

---

[47] قطب، سيد؛ **في ظلال القرآن**، ج3، ص 1559 -1560

الجاهلية على الإسلام بعد وجوده. ويقع الفساد في الأرض بطغيان الجاهلية على الإسلام؛ وطغيان ألوهية العباد على ألوهية الله؛ ووقوع الناس عبيداً للعباد مرة أخرى. وهو أفسد الفساد:

﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ ولا يكون بعد هذا النذير نذير، ولا بعد هذا التحذير تحذير...والمسلمون الذين لا يقيمون وجودهم على أساس التجمع العضوي الحركي ذي الولاء الواحد والقيادة الواحدة ، يتحملون أمام الله – فوق ما يتحملون في حياتهم ذاتها – تبعة تلك الفتنة في الأرض ، وتبعة هذا الفساد الكبير...، إن هذا الدين منهج حياة لا يتمثل في وجود فعلي، إلا إذا تمثل في تجمع حركي...أما وجوده في صورة عقيدة فهو وجود حكمي، لا يصبح [حقاً] إلا حين يتمثل في تلك الصورة الحركية الواقعية...وهؤلاء المؤمنون حقاً، لهم مغفرة ورزق كريم...والرزق يذكر هنا بمناسبة الجهاد والإنفاق والإيواء والنصرة وتكاليف هذا كله...وفوقه المغفرة وهي من الرزق الكريم. بل هي أكرم الرزق الكريم...،[48].

المطلب الثاني: الدخول في الإسلام حقيقة وصفات المجتمع المسلم المثالي

وفي تفسير الأستاذ لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨]، تطرق رحمه الله إلى بيان الأبعاد النفسية والدلالات الإيمانية والآثار الإيجابية لحقيقة الدخول في الإسلام والاستسلام الحقيقي لله عز وجل ولمنهجه القويم وأثر ذلك على سلوكياً وأخلاقياً وعقيدياً مقارنة مع بعض الدول الغربية، فقال رحمه الله:

" إنها دعوة للمؤمنين باسم الإيمان. بهذا الوصف المحبب إليهم، والذي يميزهم ويفردهم، ويصلهم بالله الذي يدعوهم...دعوة للذين آمنوا أن يدخلوا في السلم كافة ...، وأول مفاهيم هذه الدعوة أن يستسلم المؤمنون بكلياتهم لله، في ذوات أنفسهم، وفي الصغير والكبير من أمرهم...، استسلام الطاعة الواثقة المطمئنة الراضية. الاستسلام لليد التي تقود خطاهم وهم واثقون أنها تريد بهم الخير والنصح والرشاد؛ وهم مطمئنون إلى الطريق والمصير، في الدنيا والآخرة سواء...، وهي دعوة توجه في كل حين للذين آمنوا؛ ليخلصوا ويتجردوا؛ وتتوافق خطرات نفوسهم واتجاهات مشاعرهم مع ما يريد الله بهم، وما يقودهم إليه نبيهم ودينهم، في غير ما تلجلج ولا تردد ولا تلفت. والمسلم حين يستجيب هذه الاستجابة يدخل في عالم كله سلم وكله

[48] قطب، سيد؛ **في ظلال القرآن**، ج3، 1452

سلام. عالم كله ثقة واطمئنان، وكله رضى واستقرار. لا حيرة ولا قلق، ولا شرود ولا ضلال. سلام مع النفس والضمير. سلام مع العقل والمنطق. سلام مع الناس والأحياء. سلام مع الوجود كله ومع كل موجود. سلام يرف في حنايا السريرة. وسلام يظلل الحياة والمجتمع. سلام في الأرض وسلام في السماء...، هي عقيدة جميلة فوق أنها عقيدة كريمة. عقيدة تسكب في روحه السلام؛ وتطلقه يعانق الوجود كله ويعانق كل موجود؛ ويشيع من حوله الأمن والرفق، والحب والسلام. والاعتقاد بالآخرة يؤدي دوره الأساسي في إفاضة السلام على روح المؤمن وعالمه؛ ونفي القلق والسخط والقنوط...إن الحساب الختامي ليس في هذه الأرض؛ والجزاء الأوفى ليس في هذه العاجلة...إن الحساب الختامي هناك؛ والعدالة المطلقة مضمونة في هذا الحساب...، فأولى به ألا يغدر ولا يفجر؛ وأولى به ألا يغش ولا يخدع؛ وأولى به ألا يطغى ولا يتجبر؛ وأولى به ألا يستخدم أداة مدنسة ولا وسيلة خسيسة. وأولى به كذلك ألا يستعجل المراحل، وألا يعتسف الطريق، وألا يركب الصعب من الأمور...، وشعور المؤمن بأنه يمضي مع قدر الله، في طاعة الله، لتحقيق إرادة الله...وما يسكبه هذا الشعور في روحه من الطمأنينة والسلام والاستقرار؛ والمضي في الطريق بلا حيرة ولا قلق ولا سخط على العقبات والمشاق...، والتكاليف التي يفرضها الإسلام على المسلم كلها من الفطرة ولتصحيح الفطرة. لا تتجاوز الطاقة؛ ولا تتجاهل طبيعة الإنسان وتركيبه؛ ولا تهمل طاقة واحدة من طاقاته لا تطلقها للعمل والبناء والنماء...،

والمجتمع الذي ينشئه هذا المنهج الرباني، في ظل النظام الذي ينبثق من هذه العقيدة الجميلة الكريمة، والضمانات التي يحيط بها النفس والعرض والمال ...كلها مما يشيع السلم وينشر روح السلام. هذا المجتمع المتواد المتحاب المترابط المتضامن المتكافل المتناسق. هذا المجتمع الذي حققه الإسلام مرة في أرقى وأصفى صوره. ثم ظل يحققه في صور شتى على توالي الحقب، تختلف درجة صفائه، ولكنه يظل في جملته خيراً من كل مجتمع آخر صاغته الجاهلية في الماضي والحاضر، وكل مجتمع لوثته هذه الجاهلية بتصوراتها ونظمها الأرضية! هذا المجتمع الذي تربطه آصرة واحدة – آصرة العقيدة – حيث تذوب فيها الأجناس والأوطان، واللغات والألوان، وسائر هذه الأواصر العرضية التي لا علاقة لها بجوهر الإنسان ...، هذا المجتمع الذي يسمع الله يقول له:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾...والذي يرى صورته في قول النبي الكريم: "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى"...هذا المجتمع الذي من آدابه: ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾، ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ...﴾، ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ...﴾...، "كل المسلم على المسلم حرام:دمه وعرضه وماله "...،

ثم هذا المجتمع النظيف العفيف الذي لا تشيع فيه الفاحشة؛ ولا يتبجح فيه الإغراء، ولا تروج فيه الفتنة، ولا ينتشر فيه التبرج، ولا تتلفت فيه الأعين على العورات، ولا ترف فيه الشهوات على الحرمات، ولا ينطلق فيه سعار الجنس وعرامة اللحم والدم كما تنطلق في المجتمعات الجاهلية قديماً وحديثاً...، هذا المجتمع الذي تحكمه التوجيهات الربانية الكثيرة، والذي يسمع الله – سبحانه – يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾،﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾... ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ...﴾، ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ....وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ...﴾...، وفي مثل هذا المجتمع تأمن الزوجة على زوجها، ويأمن الزوج على زوجته، ويامن الأولياء على حرماتهم وأعراضهم، ويأمن الجميع على أعصابهم وقلوبهم. حيث لا تقع العيون على المفاتن، ولا تقود العيون القلوب إلى المحارم. فإما الخيانة المتبادلة حينذاك وإما الرغائب المكبوتة وأمراض النفوس وقلق الأعصاب...بينما المجتمع المسلم النظيف العفيف آمن ساكن، ترف عليه أجنحة السلم والطهر والأمان !

وأخيراً إنه ذلك المجتمع الذي يكفل لكل قادر عملاً ورزقاً، ولكل عاجز ضمانة للعيش الكريم، ولكل راغب في العفة والحصانة زوجة صالحة، والذي يعتبر أهل كل حي مسؤولين مسؤولية جنائية لو مات فيهم جائع؛ حتى ليرى بعض فقهاء الإسلام تغريمهم بالدية. والمجتمع الذي تكفل فيه حريات الناس وكراماتهم وحرماتهم وأموالهم بحكم التشريع، بعد كفالتها بالتوجيه الرباني المطاع. فلا يؤخذ واحد فيه بالظنة، ولا يتسور على أحد بيته، ولا يتجسس على أحد فيه متجسس، ولا يذهب فيه دم هدرا والقصاص حاضر؛ ولا يضيع فيه على أحد ماله سرقة أو نهبا والحدود حاضرة. المجتمع الذي يقوم على الشورى والنصح والتعاون. كما يقوم على المساواة والعدالة الصارمة التي يشعر معها كل أحد أن حقه منوط بحكم شريعة الله لا بإرادة حاكم، ولا هوى حاشية ، ولا قرابة كبير...،

هذه كلها بعض معاني السلم الذي تشير إليه الآية وتدعو الذين آمنوا للدخول فيه كافة. ليسلموا أنفسهم كلها لله؛ فلا يعود لهم منها شيء، ولا يعود لنفوسهم من ذاتها حظ؛ إنما تعود كلها لله في طواعية وفي انقياد وفي تسليم...ولا يدرك معنى هذا السلم حق إدراكه من لا يعلم كيف تنطلق الحيرة وكيف يعربد القلق في النفوس التي لا تطمئن بالإيمان، في المجتمعات التي لا تعرف الإسلام، أو التي عرفته ثم تنكرت له، وارتدت إلى الجاهلية، تحت عنوان من شتى العنوانات في جميع الأزمان...هذه المجتمعات الشقية الحائرة على الرغم من كل ما قد يتوافر لها من الرخاء المادي والتقدم الحضاري، وسائر مقومات الرقي في عرف الجاهلية الضالة التصورات المختلة الموازين.

وحسبنا مثل واحد مما يقع في بلد أوربي من أرقى بلاد العالم كله وهو "السويد". حيث يخص الفرد الواحد من الدخل القومي ما يساوي خمسمائة جنيه في العام. وحيث يستحق كل فرد نصيبه من التأمين الصحي وإعانات المرض التي تصرف نقدا والعلاج المجاني في المستشفيات. وحيث التعليم في جميع مراحله بالمجان، مع تقديم إعانات ملابس وقروض للطلبة المتفوقين وحيث تقدم الدولة حوالي ثلاثمائة جنيه إعانة زواج لتأثيث البيوت...وحيث وحيث من ذلك الرخاء المادي والحضاري العجيب ...ولكن ماذا ؟ ماذا وراء هذا الرخاء المادي والحضاري وخلو القلوب

من الإيمان بالله ؟ إنه شعب مهدد بالانقراض، فالنسل في تناقص مطرد بسبب فوضى الاختلاط! والطلاق بمعدل طلاق واحد لكل ست زيجات بسبب انطلاق النزوات وتبرج الفتن وحرية الاختلاط! والجيل الجديد ينحرف فيدمن على المسكرات والمخدرات؛ ليعوض خواء الروح من الإيمان وطمأنينة القلب بالعقيدة. والأمراض النفسية والعصبية والشذوذ بأنواعه تفترس عشرات الآلاف من النفوس والأرواح والأعصاب...ثم الانتحار...والحال كهذا في أمريكا...والحال أشنع من هذا في روسيا...إنها الشقوة النكدة المكتوبة على كل قلب يخلو من بشاشة الإيمان وطمأنينة العقيدة...، ولما دعا الله الذين آمنوا أن يدخلوا في السلم كافة ...حذرهم أن يتبعوا خطوات الشيطان. فإنه ليس هناك إلا اتجاهان اثنان. إما الدخول في السلم كافة، وإما اتباع خطوات الشيطان. إما هدى وإما ضلال. إما إسلام وإما جاهلية. إما طريق الله وإما طريق الشيطان. وإما هدى الله وإما غواية الشيطان...وبمثل هذا الحسم ينبغي أن يدرك المسلم موقفه، فلا يتلجلج ولا يتردد ولا يتحير بين شتى السبل وشتى الاتجاهات...، ليس هنالك حل وسط، ولا منهج بين بين، ولا خطة نصفها من هنا ونصفها من هناك! إنما هناك حق وباطل. هدى وضلال. إسلام وجاهلية. منهج الله أو غواية الشيطان..." [49].

المبحث الرابع: قضايا سياسية من منظور الأستاذ

المطلب الأول: الأنظمة البشرية واتخاذ الأرباب من دون الله

وفي تفسير الأستاذ سيد قطب لقوله تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل‌عمران: ٦٤]، تطرق إلى مسألة المشرعين من البشر واتخاذ بعض الناس أرباباً من دون الله، من حيث تلقي التشريعات والقوانين من هؤلاء! واعتبر الأستاذ هؤلاء الناس بأنهم شركاء لله يشرعون للناس ما لم يأذن به الله! سواء اعترف الناس بهذه الحقيقة أم لم يعترفوا، فهذا الاعتراف باللسان أو القلب هو

---

49 قطب، سيد؛ **في ظلال القرآن**، ج1، 211، وانظر للتفاصيل أخرى مشابهة كتاب: **أمريكا من الداخل بمنظار سيد قطب**، د.صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار القلم، دمشق، ط8، 2002، ص 161 - 175

اعتراف سلبي من منظور الأستاذ، لأنه لا ينشئ آثاره الواقعية في الحياة ولا تأثير لهذا الاعتراف في تغيير سلوكيات وعقيدة الناس، فقال رحمه الله:

" ... وأول ما يلازم حقيقة التوحيد أن تتوحد الربوبية، فتتوحد العبودية...لا عبودية إلا لله. ولا طاعة إلا لله. ولا تلقي إلا عن الله. فليس إلا لله تكون العبودية. وليس إلا لله تكون الطاعة. وليس إلا عن الله يكون التلقي...التلقي في التشريع، والتلقي في القيم والموازين، والتلقي في الآداب والأخلاق. والتلقي في كل ما يتعلق بنظام الحياة البشرية...وإلا فهو الشرك أو الكفر. مهما اعترفت الألسنة، ومهما اعترفت القلوب الاعتراف السلبي الذي لا ينشئ آثاره في حياة الناس العامة...، وأظهر خصائص الألوهية بالقياس إلى البشرية: تعبد العبيد؛ والتشريع لهم في حياتهم، وإقامة الموازين لهم. فمن ادعى لنفسه شيئاً من هذا كله فقد ادعى لنفسه أظهر خصائص الألوهية؛ وأقام نفسه للناس إلها من دون الله. وما يقع الفساد في الأرض كما يقع عندما تتعدد الآلهة في الأرض على هذا النحو. عندما يتعبد الناس الناس. عندما يدعي عبد من العبيد أن له على الناس حق الطاعة لذاته؛ وأن له فيهم حق التشريع لذاته؛ وأن له كذلك حق إقامة القيم والموازين لذاته، فهذا هو ادعاء الألوهية ولو لم يقل كما قال فرعون: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴾[النازعات: ٢٤]...، والإقرار به هو الشرك بالله أو الكفر به...، وإنها لدعوة منصفة من غير شك. دعوة لا يريد بها النبي صلى الله عليه وسلم أن يتفضل عليهم هو ومن معه من المسلمين ...، كلمة سواء يقف أمامها الجميع على مستوى واحد. لا يعلو بعضهم على بعض، ولا يتعبد بعضهم بعضا. دعوة لا يأباها إلا متعنت مفسد، لا يريد أن يفيء إلى الحق القويم. إنها دعوة إلى عبادة الله وحده لا يشركون به شيئاً. لا بشراً ولا حجراً. ودعوة إلى ألا يتخذ بعضهم بعضاً من دون الله أرباباً. لا نبياً ولا رسولاً. فكلهم لله عبيد. إنما اصطفاهم الله للتبليغ عنه، لا لمشاركته في الألوهية والربوبية. ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾...، وهذه المقابلة بين المسلمين ومن يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله، تقرر بوضوح حاسم من هم المسلمون. المسلمون هم الذين يعبدون الله وحده؛ ويتعبدون لله وحده؛ ولا يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله ...،إن الناس في جميع النظم الأرضية يتخذ بعضهم بعضا أرباباً من دون الله...، يقع هذا في أرقى الديمقراطيات كما يقع في أحط الديكتاتوريات سواء ...،فالعبودية عبادة لا يتوجه بها إلا لله. وفي النظام الإسلامي وحده يتحرر الإنسان من هذه الربقة...ويصبح حراً. حراً يتلقى التصورات والنظم والمناهج والشرائع والقوانين والقيم والموازين من الله وحده، شأنه في هذا شأن كل إنسان آخر مثله. فهو وكل إنسان آخر على سواء. كلهم يقفون في مستوى واحد، ويتطلعون إلى سيد واحد، ولا يتخذ بعضهم بعضا أرباباً من دون الله. والإسلام – بهذا المعنى – هو الدين عند الله. وهو الذي جاء به كل رسول من عند الله...، لقد أرسل الله الرسل بهذا

الدين ليخرجوا الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله. ومن جور العباد إلى عدل الله... فمن تولى عنه فليس مسلماً بشهادة الله. مهما أول المؤوّلون، وضلل المضللون..."[50].

المطلب الثاني: الحاكمية لله

لقد استغرق حديث الأستاذ حول مسألة الحاكمية وقتاً طويلاً وصفحات عديدة في تفسيره نظراً لكون هذه المسألة من أمهات القضايا الإسلامية، وهو يعجب رحمه الله من بعض الدعاة المتحدثين باسم الإسلام كيف لم يفهموا معاني ودلالات وأبعاد هذه القضية! فهؤلاء الدعاة " المتحمسون " للأسف لم يفهموا قوة العلاقة بين العقيدة والشريعة الإسلامية! متجاهلين بأن هذه التفرقة أو الفصل كان نتيجة الجهد المكثف لأعداء الإسلام " جنود مدربون للإفساد والتضليل عبر القرون". فأمثال هؤلاء " المتحمسين والمحبين للإسلام " لم يقرؤوا القرآن حق القراءة! ولم يستقرؤوا نصوصه كاملة غير منقوصة...عندما حكموا على عابد الوثن بالشرك والكفر والخروج من الملة! ولم يحكموا على المتحاكم إلى الطاغوت بالكفر والشرك! لعمري إن هذا لشيء عجاب، متناسين أو متجاهلين قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾[الأنعام: ١٢١]. ففي تفسيره لقوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]،يقول رحمه الله:

"...إن هذا الدين شريعته كعقيدته في تقرير صفة الشرك أو صفة الإسلام. بل إن شريعته من عقيدته في هذه الدلالة...بل إن شريعته هي عقيدته...إذ هي الترجمة الواقعية لها ...كما تتجلى هذه الحقيقة الأساسية من خلال النصوص القرآنية، وعرضها في المنهج القرآني. وهذه هي الحقيقة التي زُحزح مفهوم «الدين » في نفوس أهل هذا الدين عنها زحزحة مطردة خلال قرون طويلة، بشتى الأساليب الجهنمية الخبيثة...حتى انتهى الأمر بأكثر المتحمسين لهذا الدين – ودعك من أعدائه والمستهترين الذين لا يحفلونه – أن تصبح قضية الحاكمية في نفوسهم قضية منفصلة عن قضية العقيدة! لا تجيش لها نفوسهم كما تجيش للعقيدة! ولا يعدون المروق منها مروقاً من الدين، كالذي يمرق من عقيدة أو عبادة! وهذا الدين لا يعرف الفصل بين العقيدة والعبادة والشريعة. إنما هي الزحزحة التي زاولتها أجهزة مدربة، قروناً طويلة، حتى انتهت مسألة الحاكمية إلى هذه الصورة الباهتة؛ حتى في حس أشد المتحمسين لهذا الدين! وهي هي القضية التي تحتشد لها سورة مكية – موضوعها ليس هو النظام وليس هو الشريعة، إنما موضوعها هو العقيدة – وتحشد لها كل هذه المؤثرات، وكل هذه التقريرات؛ بينما هي تتصدى لجزئية تطبيقية من تقاليد الحياة الاجتماعية.

---

[50] قطب، سيد؛ **في ظلال القرآن**، ج1، 407

ذلك أنها تتعلق بالأصل الكبير...أصل الحاكمية...وذلك أن هذا الأصل الكبير يتعلق بقاعدة هذا الدين وبوجوده الحقيقي .

إن الذين يحكمون على عابد الوثن بالشرك، ولا يحكمون على المتحاكم إلى الطاغوت بالشرك ويتحرجون من هذه ولا يتحرجون من تلك...إن هؤلاء لا يقرأون القرآن، ولا يعرفون طبيعة هذا الدين ...فليقرؤوا القرآن كما أنزله الله؛ وليأخذوا قول الله بجد: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾[الأنعام: ١٢١]، وإن بعض هؤلاء المتحمسين لهذا الدين ليشغلون بالهم وبال الناس ببيان إن كان هذا القانون، أو هذا الإجراء، أو هذا القول، منطبقاً على شريعة الله أو غير منطبق...وتأخذهم الغيرة على بعض المخالفات هنا وهناك...كأن الإسلام كله قائم، فلا ينقص وجوده وقيامه وكماله إلا أن تمتنع هذه المخالفات!

هؤلاء المتحمسون الغيورون على هذا الدين، يؤذون هذا الدين من حيث لا يشعرون. بل يطعنونه الطعنة النجلاء بمثل هذه الاهتمامات الجانبية الهزيلة...إنهم يفرغون الطاقة العقيدية الباقية في نفوس الناس في هذه الاهتمامات الجانبية الهزيلة...إنهم يؤدون شهادة ضمنية لهذه الأوضاع الجاهلية. شهادة بأن هذا الدين قائم فيها، لا ينقصه ليكمل إلا أن تصحح هذه المخالفات. بينما الدين كله متوقف عن « الوجود » أصلاً، ما دام لا يتمثل في نظام وأوضاع، الحاكمية فيها لله وحده من دون العباد..."[51].

[51] قطب، سيد؛ **في ظلال القرآن**، ج3، ص 1216 -1217

الخاتمة والنتائج

الحمد لله الواحد القهار والكبير المتعال والذي بقدرته ولطفه يوفق عباده الضعفاء والأذلاء إلى إتمام بحوثهم وإنجاز أعمالهم، فلو لا فضل الله ورحمته علينا لما كنا من الموفقين، وبعد؛

فقد انتهت المساحة المسموحة لنا بالكتابة في هذا البحث حول الموضوعات التي مساحة لها ولا قرار، وهذا هو الشأن في الأوراق العلمية المقدمة في المؤتمرات. ففي حالات كثرة نظلم الفكرة الأساسية للنقاش بسبب قلة الكتابة عنها، كما أننا نظلم أنفسنا والحاضرين والسامعين في القاعات بسبب ضيق الوقت في العرض وبيان الموضوع. وبحمد الله وتوفيقه فقد توصلت في هذه الدراسة إلى عدة نتائج منها:

1- بينت الدراسة أن الجيل الأول من الصحابة والتابعين تميز بمنهج فريد يعتمد على التلقي والتعلم للعمل والتنفيذ وليس التلقي لغرض المتاع والدراسة والثقافة.
2- أثبت الدراسة أن المعرفة تتحول إلى العمل الحركة ولا يجوز اختزال المعارف في الأذهان.
3- تمخضت من الدراسة أن المجتمع الكافر كيان حي يتحرك مثل العضو الواحد، فلا بد من مواجهته بنفس الطريقة والأسلوب والخطة.
4- أظهرت الدراسة أن رابطة العقيدة هي مقدمة ومفضلة على بقية الروابط الاجتماعية.
5- برهنت الدراسة أن العقيدة الإسلامية هي بمثابة القاعدة لدى البنيان. فلا يمكن تنفيذ شيء من الأوامر والأحكام والمبادئ الشرعية إلا بعد غرس العقيدة أولاً في قلوب المسلمين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وكتبه الفقير إلى عفو مولاه في كل أحواله:

خادم القرآن: **الدكتور خيرالدين خوجة (الكوسوفي)** –كلية الشريعة والدراسات الإسلامة – جامعة قطر
16 ذي الحجة 1434 هـ، الموافق ليوم الجمعة 02.11.2012 الدوحة – قطر

المصادر والمراجع

الخالدي، صلاح عبد الفتاح؛ ا **أمريكا من الداخل بمنظار سيد قطب**، دار القلم، ط8، دمشق، 2002.

زرواق، نصير؛ **مقاصد الشريعة الإسلامية في فكر الإمام سيد قطب**، دار السلام، ط1، القاهرة، 2009.

القرضاوي، يوسف؛ **كيف نتعامل مع القرآن**، دار الشروق، ط1، 1999، القاهرة.

قطب، سيد؛ **المستقبل لهذا الدين**، الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية، ط1، 1988.

قطب، سيد؛ **خصائص التصور الإسلامي ومقوماته**، دار الشروق، ط3، القاهرة، 1996

قطب، سيد؛ **في ظلال القرآن**، دار الشروق، ط2، 1980، القاهرة (**المصدر الرئيس للبحث**)

قطب، سيد؛ **معالم في الطريق**، دار القلم، ط3، بيروت، 2001

قطب، سيد؛ **مقومات التصور الإسلامي**، دار الشروق، ط4، القاهرة، 1998

مسند الإمام أحمد، تحقيق الشيخ شعيب الأرنؤوط و عادل مرشد، مؤسسة الرسالة، ط1، 2001.

النووي، يحيى شرف الدين؛ **صحيح الإمام مسلم بشرح** ، دار القلم، ط2، بيروت، 2003.

يوسف، محمد حسن؛ **الصفحة السوداء للكتاب المقدس**، دار الكتاب العربي، ط 1، القاهرة، 2006.